بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هـــذا لون جديد من التفكير الفلسفى الحديث أقدمه لقراء اللغة العربية ، ليعرفوا مقدار مايمكن أن تقدمه التجارب العملية وكل من البحوث النفسية وعلوم الحياة ووظائف الأعضاء من خدمات للبحوث الدينيـة ، على يد عالم قوى الملاحظة، دقيق التفكير ، يرجو الوصول إلى نتائج لاتقطعه عن الحياة العملية .

إنه جديد ، لأنه لم يتقيد بمبادئ المدارس الفكرية السابقة ، فلم يك صورة من صور المدرسة العقلية ، ولا مظهراً لمدرسة الذوق والبديهة، ولم يك تجريبياً قديماً. إنه عقلى ووجدانى معا ، أو هو نتيجة لحبك كل ما هو صالح من الجميع وصهره إلى وحدة، أصبحت بفضل جمس William James تلك الآراء التى أقدمها اليوم إلى القراء.

ولقد كان أمامى طريقان لإبراز ذلك اللون من التفكير . أحدهما ، وقد يكون أقلهما مجهوداً ، وأوفرهما فائدة عاجلة ، أن ألبسه الثوب الذى أرتضيه ، فأقدمه كما فهمته . بيد أن تصوير الفكرة كثيراً ما يكون مشربا بروح المصوِّر وملوناً بعقائده وميوله نحو الحياة ، فلا يصور الفكرة أدق تمثيل أو كما يراها مصور آخر . لذلك عدلت عن هذا الطريق ، وفضلت أن أنقل جمس بروحه ومعناه وبأسلوبه ، بل بلفظه كذلك فى كثير من الأحيان . وذلك مجهود ، لو تعلمون ، عسير . ارتضيت ذلك النحو تحقيقاً للأمانة العلمية ، وارتفاعا بالقارئ الكريم عن أن يواجه بأحكام على جمس قبل أن يتعرف بفلسفته . وبذلك وضعت بين يديه فرصة الحكم على تلك الفلسفة .

فإن شاء شاركني في الحكم الذي سأعرض له إن شاء الله في السفر الثاني ، وإن شاء خالفني ، إذا ما أوصلته بحوثه إلى غير ما ارتضيت .

ولما كان جمس من أخصب العلماء المحدثين عقلا ، وأغزرهم مادة ، وأكثرهم إنتاجا ، كان من العسير إبراز فلسفته مرة واحدة . فلم يكن أمامنا إلا أن نتخير ونقدم ماتراه أكثر نفعا ، وأحسن عرضا ، وأيسر فهما . ولقد سهل تلك المهمة أن جمس كان يصدف عن القواعد الاصطلاحية والعبارات الفنية ، وكان يلبس الفكرة العميقة ثوبا ساذجا ويعرضها عرضا سهلا ؛ فاستساغه الجمهور ، ولم يبتذله العالم المتعمق . ولم تكن فلسفته ، مع هذا ، إلا دروسا ومحاضرات لايمز فصل بعضها عن بعض ، وإن كانت تهدف كلها نحو غرض واحد .

ولكن هل أقدم جمس الفيلسوف، أم أحد علماء النفس، أم أحد المشتغلين بعلوم الحياة ووظائف الأعضاء ، أم أحد رجال اللاهوت الذين وجدوا أدلة أقنعتهم بوجود الله ؟ تواجه تلك النواحي المتعددة الناظر إلى جمس ، ولكنه يجدها كلها ماثلة في تلك المجموعة من المحاضرات المسماة « بإرادة الاعتقاد » . وهذا هو ماحداني على تخيرها ، لأن من يقرؤها لايعجز عن أن يتبين فيها نواحي جمس المتعددة .

ولقد رأيت أنه من الأجدر أن أقسم تلك المجموعة قسمين : أبدأ منهما بما يبدو أسلس عبارة وأخف فهما ، وقد جعلت هذا القسم موضوع السفر الذي أقدمه اليوم إلى القراء ؛ وأثني بالآخر لاحتياجه إلى مقدار من إعمال الفكر ، وسأرجئه إلى السفر الثاني الذي أرجو أن أتمكن قريبا من إصداره إن شاء الله. وسأترك كذلك العرض الفلسفي والنقد لبعض نظرياته إلى السفر الثاني ، حيث أرجو أن يكون هناك شيء من البسط لما يستدعي البسط منها .

والآن أقدم جمس تقديما سريعا وأعرضه عرضا موجزا ، ليعلم من لم يسبق له به علم من هو ذلك الرجل الذي أوليه هذه العناية .

عاش جمس فى القرن التاسع عشر وأدرك شطرا من القرن العشرين (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) ، فقد كان معاصراً لبعض رجال لا يزالون على قيد الحياة . وهو من أشهر مفكرى أمريكا على الإطلاق ، وأحد قادة الفكر الحديث فى الفلسفة وعلم النفس ، بل من المجددين فيهما كذلك . وتدين له نظرية الذرائع Pragmatism بحياتها . تربى فى بيئة دينية قوية . فقد كان أبوه رجلا متديناً تلقى علومه فى مدارس دينية ، وتأهل ليكون قسيساً . ولم يمنعه من المساهمة فى أعمال الكنيسة إلا عجزه الجسمى . فلزم البيت ، وكوّن لأبنائه تلك البيئة الدينية التى نجد أثرها واضحاً فيهم جميعاً . ولكنه كان أكثر ظهوراً فى ابنه وليم جمس لأنه لازم البيت فى أثناء مرضه مدة طويلة كان يشغلها بالقراءة . ولقد اتصل ، من غير شك ، بكثير من كتب أبيه الدينية .

يمكن تقسيم حياة جمس إلى مرحلتين متمايزتين : مرحلة التهيؤ والاستعداد ، بما يتبع ذلك من قلق نفسى واضطراب فكرى وتردد ؛ ومرحلة الاستقرار والخيوبة والإنتاج . شغلت المرحلة الأولى الجزء الأكبر من حياته ، إذ لم يفرغ من مرحلة التعليم الأكاديمى إلا وهو قريب من الثلاثين من عمره ، ولم يتغلب على اضطراباته النفسية ، ويشف من شكوكه وأوهامه إلا بعد أن جاوز الأربعين . حاول جمس فى إبان حياته أن يتعلم الفنون اليدوية ، ولكنه ما لبث أن تركها ، لأنه لم يجدها منسجمة مع ميوله ورغباته ، والتحق بمدرسة لورانس Laurance العلمية . فدرس هناك الكيمياء وفن التشريح وما يتعلق بهما من موضوعات . ثم درس الطب فى كلية هارفارد Harvard الطبية . ولكنه قطع الدراسة وصاحب لويس أجاسيز Louise Agassiz فى رحلة اكتشافية إلى الأمازون Amazon . ولقد أفاد من تلك الصحبة كثيراً ، فهو « الشخص الذى عرّفه الفرق الشاسع بين العلماء النظريين

والعلماء الذين يسيرون على هدى الحياة العملية الكاملة » . ولما أصابه المرض فى أثناء الرحلة رجع إلى وطنه وعاود الدراسة . ولكنه مالبث أن قطعها ثانية وذهب إلى ألمانيا ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨ حيث ظل ثمانية عشر شهراً ، كان فى أثنائها شديد الاتصال بالفلسفة المعاصرة وبعلم النفس . وقد اتصل حينئذ بفلسفة رينوفييه Renouvier . ويحدثنا جمس أن اتصاله بتلك الفلسفة وتدبره فيها كان نقطة تحول فى حياته ، وكان موجهاً له فى حياته الفلسفية بل فى حياته الشخصية كذلك.

ولكن المرض الذى أصابه فى رحلته السابقة كان لايزال يعاوده ، فكانت تأتيه منه نوبات حادة عنيفة . وكان من جراء ذلك ضعيفاً ، متبرماً بالحياة ، متشائماً . وقد بلغ به التشاؤم حداً جعله يفكر فى الانتحار . ولعل الذى باعد بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة هو خارق من خوارق العادات أو شعور غامض بذلك العلاج الذى سيقدمه هو فيما بعد فى بحثه عن « قيمة الحياة »[1] ليعالج به مريد الانتحار نفسه ، فيحبب إليه الحياة ثانية ، ويجعله مستعداً لأن يواجه نصيبه من الكفاح بقلب قوى وعزيمة صادقة . ولما عاد إلى وطنه وتخرج من الجامعة بدرجة ماجستير فى الطب عام ١٨٦٩ ، كان لايزال مريضاً . لذلك لم يقدر أن يبدأ حياته العملية ، وظل حبيس بيت والده حتى عام ١٨٧٢ . ولكن لم يمنعه المرض من الاتصال بالحياة الفكرية المعاصرة وغيرها . وهنا يحدثنا جمس أن الذى خفف عنه ألمه النفسى الشديد ، وأزال كثيراً من أوهامه ووساوسه هو قراءة بحث رينوفييه Renouvier فى حرية الإرادة ، وقراره الجازم بعد ذلك « أن أول عمل إيجابى يعمله المرء بالنسبة لحرية الإرادة هو أن يعتقد أنه حر الإرادة » . وكأن هذا القرار كان الجرعة الأولى من

---

(١) انظر الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب .

الدواء الناجع ، فأظهرت شيئاً من حيوية جمس ، ووجهته توجيهاً جديداً . فرفض كلا من الجبر العلمى والميتافيزيقى الذى كان يعتقده نتيجة لدراساته العلمية والفلسفية وأصبحت بحوثه كلها ملونة بذلك اللون الشخصى .

ولما خفت آلامه قليلاً اختير مدرساً لعلم النفس فى كلية هارفارد Harvard ، وظل مدرساً لتلك المادة من ١٨٧٢ ـ ١٨٧٦ . وعلى الرغم من أنه كان مبرزاً فى علم النفس ، فقد كان متعب النفس ضيقها من دراسته ، ورغب فى أن يدرس علم وظائف الأعضاء من ناحيته السيكلوجية لا من ناحيته التشريحية . ولكن ألم يكن هـذا خروجا على المأثور فى علم النفس ؟ نعم كان كذلك ، واعتبر تحدياً للعقلية الدينيه التى كانت تتحكم فى جامعات أمريكا كلها . ولم تخضع له تلك العقلية إلا بعد أن أبان لها أنه لاضير على العقيدة من تلك الدراسة . وبذا أصبح علم النفس ، على يديه ، علماً يخضع للتجارب كسائر العلوم التجريبية بعد أن كان فلسفة نظرية .

ولم تفارقه آلامه النفسية ، ويزل عنه ما كان يعاوده من تهيجات عصبية حتى تزوج ؛ وكأن الزواج كان آخر جرعة يتناولها ليتم بها الشفاء النفسى . فقد اختفت كل آلامه ، وامتلأت نفسه أملاً فى الحياة ونشاطاً وحماساً وقوة على العمل . وبذا تبدأ المرحلة الثانية من حياته : مرحلة الإنتاج والعمل . وهنا ظهر ما كانت تكنه تلك النفس الثائرة المضطربة . فأخرج أولاً كتابه الضخم فى « مبادىء علم النفس » . وكان كتابه هذا ابتكاراً فى كثير من نواحى علم النفس ، ولا يزال عمدة فيه حتى يومنا هذا . ولقد أخضع فيه علم النفس لقواعد علم الحياة ، واعتبر التفكير من آلات الكفاح فى الحياة ، فهو وسيلة من وسائل الحياة العملية .

ولكن لم يكن جمس هذا فحسب ، فلا تزال نفسه تواقة لموضوعات أكثر حيوية ، هيء لها بطبيعته . فلم يتابع بحوثه النفسية ، ولم يعن كل العناية بمعامل

التجارب التى أوجدها ، لأنه قد تبين له أنه عمل لايمكن أن يحسنه . وما بالله يقيد نفسه بدائرة ضيقة داخل المعمل مادام فى مقدوره أن يكون طليقاً ، يلاحظ ويتدبر أنى شاء وكيف شاء ؟ فترك معامل التجارب ولم يستقص بحوثه النفسية لأنها « ضئيلة القيمة بالنسبة للبحوث الفلسفية والدينية » ؛ فهى ليست إلا مقدمة لها ، وهكذا استعملها جمس . فكأن شيئاً كان يناديه من قرارة نفسه ، ويدفعه دفعاً عنيفاً إلى الناحية الدينية . فتوجه تلك الوجهة بميل طبيعى ورغبة نفسية . ولذا أنتج ، ولذا أحسن فيما أنتج . توجه الآن بكليته نحو البحوث المتعلقة بوجود الله وبصفاته ، والمتعلقة بخلود النفس وبحرية الإرادة وبالجبر ، والمتعلقة بقيمة الحياة .

فلاحظ أولا أن البراهين الذهنية النظرية لايمكن أن تشفى غلتنا فى هذه الناحية ، فلا بد أن يبحث عنها فى المسائل التجريبية المتعلقة بها . فلنبحث عن الإله وصفاته فى الأعمال الدينيـــة وفى الشعور الدينى . ولنبحث عن إمكان حياة النفس ثانية فى التجارب الروحية . ولنبحث عن الجبر والاختيار فى مظانهما من الحركات وأفعال الاعتقاد . التجأ جمس فعلا إلى تلك النواحى المتعددة ، راجياً الوصول إلى نتيجة . فهو ، إذن ، كان باحثاً عن نتائج ، لا مبرهناً على رأى سابق . فوجد أن البحوث الروحية التى قامت بها جمعية البحوث النفسية فى أمريكا وانجلترا تؤدى إلى افتراض أن لنا قوة نفسية كامنة ، لايعبر عنها الحس الظاهر ، ولا تأتينا معارفها عن طريق الحس الظاهر . ولكن ماهى ، من أين تأتينا معارفها ، وهل يكفى ذلك برهاناً على صحو بعد موت ؟ يرى جمس أنه لا يكفى ، وأنه ليس لديه من معارف تجريبية يشرح بها طبيعة تلك النفس وطريق معرفتها .

وجد أن التجارب الدينية تؤيد القول بوجود الله ، ووجد أن له مكاناً طبيعياً فى نفوسنا ، فلاتستريح النفس ولايطمئن العقل حتى يصل إليه . ووجد كذلك أنه قادر على كل

شيء ، ويمكننا أن نتصل به ونلجأ إليه فى الشدائد ، فينقذنا مما ألم بنا . آمن بأن لنا حرية واختيارا ، ولكن ليست الحرية إلا نوعا من انفكاك بعض الأعمال أو الأشياء عن بعض . يعنى أن المستقبل ليس شيئاً واحداً ضرورياً قد حدده الماضى ، بل هو مبهم غامض ولا يمكن استنتاجه من الماضى . ويمكن القول بأن فى العالم مصادفات ، أى أموراً ليس وجودها ضرورياً . وارتأى أن مثل هذه المصادفات فى العالم لا يتنافى مع القول بوجود إله مدبر ؛ فتوجد المصادفات ، ولكن لا يشذ بها العالم عن الطريق العام الذى رسمه له الله .

ظهرت تلك الآراء كلها فى محاضرات ألقيت فيما يقرب من عشر سنين ١٨٩٣ ـ ١٩٠٢ . وجمعت كلها فى أربعة كتب . وهى : « إرادة الاعتقاد ومقالات أخرى فى الفلسفة العامة » ، وهو الكتاب الذى أقدمه للقراء فى جزأين؛ و« خلود الإنسان » ؛ و« أحاديث لمدرسى علم النفس ولطلاب المثل العليا » ؛ و« تعدد التجارب الدينية » .

وأخيراً ، وجهته هـــذه البحوث كلها وجهة أخرى . فحينما كان يحاضر فى كاليفورنيا California عن النظريات الفلسفية وعن نتائجها العملية ، ذكر نظرية الذرائع Pragmatism ، التى اشتهر بها أو التى اشتهرت به بعد ، وبين أن مدلول الفكرة ، أيا كان نوعها ، هو نتائجها الفعلية التى تؤدى إليها . وتلك النتائج الفعلية هى البرهان القاطع على صحة الفكرة . فليس صدق الفكرة هو انطباقها على شىء ذهنى أو آخر خارجى موجود قبل وجود الفكرة ؛ أو بعبارة أخرى ، إذا كانت الفكرة وسيلة والعمل أو النتيجة غاية ، فإن الغاية هى التى تبرر الوسيلة . ولقد انتفع بتلك القاعدة ، وطبقها على المسائل الدينية نفسها . «فالعقيدة تبرهن على نفسها» ، يعنى أنها تؤدى قطعاً إلى عمل يحقق ما يعتقد المرء فيه خارجا ؛ وهـذه عبارة من عباراته التى ترددت فى غير موضع من كتبه . ولقد وجد أن نظرية الذرائع لا تشهد

للقول بوحدة الوجود ، وأنها تدل على أنه ليس هناك من حاجة لافتراض « جوهر » ليربط الأشياء بعضها ببعض ، إذ أن الروابط الظاهرة للأشياء هى حقائق كالأشياء نفسها . فحاضر وكتب فى نظرية الذرائع تحت عنوان « اسم جديد لنوع قديم من التفكير » و « هل للشعور وجود ؟ » و « التجارب وما فيها من فاعلية » و « الشيء وروابطه » . ثم جمعت هذه الفصول كلها فى كتاب واحد تحت عنوان : « مقالات فى المذهب التجريبى المتطرف » .

وبذا أصبح جمس مركزاً لمدرسة فلسفية جديدة فى العالم الناطق باللغة الانكليزية . وكان من أقوى أنصاره فى أمريكا ديوى Dewy ومدرسته،وفى انجلترا شِلَر Schiller . ولقد أراد أن يسلم ذلك الغرس الناشيء لمناصريه ليتعهدوه بما ينبغى له ، وليستريح من مجهوده المضنى . ولكنه لم يجد بداً من السفر إلى كلية مانشستر Manchester فى أكسفورد ، استجابة لدعوة جاءته ، لأنه ظنها تحدياً للمذهب الجديد . فحاضر وكللت محاضراته بالنجاح ، ثم ظهرت فى كتاب تحت عنوان « العالم المتعدد » .

ولما عاد إلى وطنه واشتد به الضعف ، غادره ثانية للاستشفاء ، ولكن إذا حم القضاء فلا مناص منه ، ولا يغنى العلاج شيئاً . فرجع إلى وطنه ، وجاءته المنية فى بيته الريفى فى اغسطس عام ١٩١٠ .

ذلكم هو وليم جمس William James كما يصوره لنا التاريخ وكما تصوره كتبه. فهو حقاً مجدد ، ولكن فى تواضع . ولقد كره أن يقال انه صاحب مذهب. إنه لم يفعل إلا أن يضع « اسماً جديداً لنوع من التفكير القديم » . وحكمى الإجمالى عليه هو : ولو أن فلسفته الميتافيزيقية لم تبلغ الغاية ، بل لم تبلغ شأوا يجارى به من سبقه من الميتافيزيقيين ـ وهو لم يزعم لنفسه شيئاً من ذلك ـ فإن فلسفته الطبيعية ، التى تقرر أن

العـالم مكون من مجموعة من الحوادث متجاورة ، وأن تغيراتها تغيرات اختيارية وليست ضرورية ، تجد كثيراً من المؤيدين فى العصر الحاضر . ولا مراء فى أنه كان من القلائل الذين برزوا فى علم النفس ، وعملوا على إخراجه من حضانة الفلسفة واستقلاله بنفسه .

ولقد كان للفرد الإنسانى فى فلسفته نصيب وافر . فهو المبدأ الذى ينبعث منـه التاريخ ويجب أن تبدأ منه كل فلسفة ، هو القوة الظاهرة التى ترفع الجماعة وتخفضها ، وفعله هو الموجه للحيـاة . « فلقد وضع الله كلا من الحيـاة والموت والخير والشر بين يديه ، وقال له اختر الحياة دون الموت لتحيا أنت وذريتك » . وإن مايخلصه من شدائده وشبهاته ليس بعيداً عنه « فى السماء ولا وراء البحار ؛ ولـكنه شديد القرب منه والالتصاق به ، بل أقرب إليـه من حبل الوريد ، إنه قلبه » .

جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ هـ
مايو سـنة ١٩٤٦ م

محمود عبد الله